

الأمية الثقافية د.محمد عبد العزيز ربيع

حين نتحدث الإحصاءات العربية والدولية عن الأمية تعني عادة الأمية الناتجة عن عدم تعلم القراءة والكتابة. وإذا استعرضنا ما حدث في بلادنا العربية على مدى نصف القرن الماضي فسوف نكتشف أن نسبة الأمية بين المواطنين انخفضت كثيرا، وذلك بالرغم من بقائها مرتفعة بوجه عام وبالنسبة لمعظم دول العالم، حيث تتجاوز 50% من السكان في عدة دول عربية.

تعتبر الأمية في عصرنا هذا وباء اجتماعيا تعمل كل دول العالم تقريبا والكثير من المنظمات الدولية ومؤسسات المجتمع المدني على إزالته وتخليص الأميين من شره، ولهذا تنتشر برامج تعليم الكبار، وتقام مراكز حكومية وتطوعية لمحو الأمية، وتستخدم وسائل الإعلام لحث الأميين على تعلم القراءة والكتابة. وهناك بعض الدول، مثل الولايات المتحدة الأمريكية، تفرض على طالبي الجنسية أن يتعلموا القراءة والكتابة بلغاتها الوطنية.

يعود الاهتمام بالقراءة والكتابة إلى كونها أداة الإنسان الرئيسية للحصول على المعرفة والى تعلم بعض المهارات الفنية، وهذه بدورها تفتح الباب للقارئ والكاتب كي يحصل على وظيفة ذات عائد جيد، أو يحترف مهنة تمكنه من الاعتماد على نفسه والعيش حياة كريمة. لكن تعلم القراءة والكتابة وحده لا يكفي إطلاقا لمحو الأمية ولا يفوق بالضرورة إلى خلق إنسان جديد لديه الرغبة والمقدرة للحصول على معارف جديدة أو الإقبال على برامج تدريبية لتعلم مهنة، أو مهارة من شأنها مساعدته كي يصبح مواطنا منتجا وصالحا.

إن قدرة أي إنسان على تعلم وإتقان أي شيء تعتمد على رغبته وتوفر الوقت الكافي لديه لمواصلة التدريب واستخدام المهارات المكتسبة من العملية التعليمية في تطبيقات مفيدة ماديا أو معنويا. وعلى سبيل المثال، يعرف معظم الناس أن دراسة لغة أجنبية في المدرسة تقود في معظم الأحيان إلى الدراية بها فقط، وفي بعض الأحيان الأخرى إلى تعلم ما يكفي منها لاستخدامها أداة في البحث، وفي القليل من الحالات قد يصل الدارس إلى درجة إتقان اللغة واستخدامها كمهارة في التعبير عن الذات وأداة في ممارسة الكتابة الخلاقة الإبداعية. لكن مهما بلغت درجة إتقان أية لغة أجنبية فإن إهمالها لفترة طويلة نسبيا، وذلك لعدم وجود حاجة لاستخدامها أو لعدم وجود الوقت الكافي للاهتمام بها يؤدي، وفي كل الحالات والأحيان إلى تحولها من أداة ومهارة إلى ذاكرة متقدمة ومتأكلة وبحاجة ماسة لصيانة مضمينة إذا أريد استخدامها من جديد.

في منتصف الستينات من القرن الماضي التحقت بإحدى الجامعات الألمانية في مدينة شتوتجارت وذلك بعد دراسة اللغة الألمانية بشكل مكثف لمدة 4 شهور في معهد جوته. لكنني تركت ألمانيا في العام التالي حيث واصلت دراستي في إحدى الجامعات الأمريكية، مما جعلني انقطع عن ألمانيا وعن اللغة الألمانية لمدة 5 سنوات متتالية، جعلتني أكتشف أن فترة غيابي تلك كانت كافية لاختصار قدراتي اللغوية إلى حوالي نصف ما كانت عليه سابقا. وبالرغم من زيارتي المتكررة والمتواصلة لألمانيا وحيي لها وللثقافة الألمانية، إلا أن ما تبقى لدي اليوم من تلك اللغة الجميلة يكفي لسائح ولا يكفي لمتطلبات باحث. إضافة إلى ذلك، لو استعرضنا أسماء أساتذة الجامعات من العرب الأمريكيين، خاصة أساتذة الرعيل الأول الذي يوشك على الاختفاء عن الساحة كليا، لوجدنا أن عدد من استطاع الحفاظ منهم على لغته الأصلية ومارس الكتابة بها أو لا يزال يمارس الكتابة لا يزيد عن عدد أصابع اليد الواحدة. وهذا يعني أن اللغة الأم، شأنها شأن أية لغة أجنبية، يمكن أيضا نسيانها، وأن القدرة على استخدامها في الكتابة ومن أجل التعبير عن الذات في غياب

الممارسة تتراجع بسرعة لتصل إلى حاجة السائح والزائر بعد أن كانت تقي بحاجة الباحث والكاتب.

لذلك، لا يمكن محو الأمية بمجرد تعليم الأميين من الناس أصول القراءة وأحرف الكتابة، لأن عدم استخدام اللغة في القراءة والكتابة سيؤدي، وبكل تأكيد إلى عودة الأمية من جديد. إن محو الأمية يتطلب أكثر من تعليم الأميين القراءة والكتابة بكثير، انه يتطلب تعليمهم طرق القراءة وفنون الكتابة، وعادة القراءة والكتابة، وأهمية القراءة والكتابة كأداة إنتاجية ومعرفية، وفوق ذلك كله، تعليمهم القراءة والكتابة كهواية من شأنها الترويح عن النفس والاستمتاع بالوقت والتعبير الصادق عن الذات. إن اللغة ليست أداة للتعبير فقط، والقراءة ليست أداة للاطلاع على معلومات جديدة فقط، بل أكثر من ذلك بكثير. إن اللغة هي طريقة في التفكير، وإن القراءة هي وسيلة لتطوير المهارات وتغيير العادات ونقد الثقافة السائدة من خلال رؤية الآخر.

إن تراجع نسب الأميين في بلادنا العربية باستمرار يقابله في الوقت ذاته ارتفاع متزايد في نسب أولئك الذين يعانون أمية ثقافية. إن عدم ممارسة القراءة والكتابة والتعود عليها كهواية ومصدر متعة يقود ليس فقط إلى ضعف مهارات القراءة والكتابة بوجه عام، وإنما أيضا إلى الانعزال عن الفكر، وضعف القدرة على متابعة الأحداث الوطنية والعالمية، والوقوع فريسة إعلام يتوخي الإثارة أكثر من الحقيقة، ويعمل دون وعي على تكريس الأفكار القديمة والنظريات التأميرية والسماح للإشاعات والخرافات والحكم الماضوية وآراء العجزة والجهلة بالسيطرة على العقل، وتوجيه المسلك وصياغة الموقف من الآخر.

إن الأمية الثقافية التي تعاني منها الأغلبية الساحقة من خريجي الجامعات العربية اليوم، خاصة أولئك الذين تخرجوا على مدى ربع القرن الماضي، تشكل عبئا كبيرا على الوطن والاقتصاد والثقافة والفكر يتفوق كثيرا من حيث الخطورة على الأمية الناتجة عن عدم تعلم القراءة والكتابة.

إن الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة يدرك تماما أنه ليس باستطاعته التنافس مع الداخلين إلى سوق العمل من المتعلمين، سواء في مجال التجارة أو الخدمة الحكومية أو الخدمات الفنية أو المهن ذات الاحتياجات المعرفية والتكنولوجية. لكن من يعاني من الأمية الثقافية يفتقد الوعي بما يعانيه من نواقص، ويفتقد بالتالي الرغبة وأحيانا المقدرة أيضا على تحديث معلوماته ومهاراته، ويعتقد في ذات الوقت أن من حقه الحصول على وظيفة جيدة ذات دخل مرتفع يمارس من خلالها سلطة الترفع عن عامة الناس وإهدار وقتهم.

وهذا يعني أن محو الأمية يحتاج أولا وقبل كل شيء إلى خلق وتطوير وغرس ثقافة القراءة والكتابة في مجتمعنا وفي مدارسنا وفي بيوتنا وفي جامعاتنا.

د. محمد عبد العزيز ربيع

professorrabie@yahoo.com

www.yazour.com